المحاضرة الثالثة

اللغة العربية: بوابة إلى التاريخ والثقافة

اللغة العربية فهي ليست مجرد وسيلة للتواصل بين البشر، بل هي أداة تحمل بين جنباتها ثقافة وتراثاً غنياً يعبر عنه شعبٌ وحضارة. إنها لغة القرآن الكريم ولغة الأدب والشعر الذي أثرى المكتبات العالمية. وإن أقدم الثقافات "وهي الثقافات الثلاث هي: العربية، واليونانية، والعبرانية. أقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية قبل ان تعرف أمة من هذه الامم باسمها المشهور في العصور الحديثة. وهذه حقيقة من الحقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج الى عناء طويل في اثباته، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثيرين من الاوروبيين والشرقيين، بل عند بعض العرب المحدثين"[1]. "الثقافة العربية اذن هي ثقافة الامة التي نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلَّمها كما كانت على الالسنة في كل دور من ادوارها سُنَّة التطور في جميع اللغات"[2].

تتميز اللغة العربية بجمال تركيباتها وغنى مفرداتها، حيث تعتمد على نظامٍ دقيق في النحو والصرف يعكس عمق الفكر البشري وقدرته على التعبير. تلك الكلمات التي تنساب كأنها لؤلؤة منثورة على صفحات الزمن.

تحمل اللغة العربية في طياتها العمق الفكري والإلهام الروحي، فهي لغة تربط بين الإنسان وخالقه بأبهى العبارات، وتعبر عن الحب والوفاء والصبر بأسلوبٍ لا يضاهى، تعكس في كلماتها وعباراتها ثراء التاريخ والثقافة العربية، إذ تحمل بين حروفها ماضٍ عريقاً وحاضراً متجدداً، وهي تعبير عن هويتنا الثقافية وتراثنا العريق.

تحقق اللغة العربية بالفعل تنوعًا لهجيًا وأدبيًا يميزها عن اللغات الأخرى:

التنوع اللهجي:

"تعرض علماء اللغة العرب للهجات العامية لا لدراسة ظواهرها بل لتحذير المتعلمين من استعمال ما يشيع منها. أما اللغة الحديث فانه يجد اللهجات ميدانا خصبا لدراسة الظواهر

---

[1] عباس محمود العقاد، الثقافة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2013، ص7.

[2] ن م: الثقافة العربية، ص12.

اللغوية وتوزيعها جغرافيا في الوطن اللغوي، ويحاول تفسير ظاهرة لغوية في مكان ما بوجودها أو انعدامها في مكان آخر من الوطن اللغوي"[3]، يقول طه حسين ان الشعر الجاهلي لم يكشف عن التباين اللهجي "...فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح، فسترى فيها مطولة لأمرئ القيس، وهو من كندة، أي من قحطان، وأخرى لزهير، وأخرى لعنترة، وثالثة للبيد، وكلهم من قيس،... تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه ان يكون اختلافا في اللهجة، أو تباعدا في اللغة، أو تباينا في مذهب الكلام..."[4]، وتتنوع اللهجات العربية حسب المنطقة والبلد، فهناك اللهجة المصرية والسورية واللبنانية والمغربية وغيرها، وكل لهجة تمتاز بسماتها الخاصة في النطق والمفردات والتعبيرات، وتتأثر اللهجات العربية بالثقافة والتاريخ والعادات في كل منطقة، مما يجعلها تتميز بتنوعها وغناها.

ويعتبر الشعر جزءًا أساسيًا من الأدب العربي، ويتميز بتنوع أشكاله وأساليبه ومواضيعه، من القصائد الحبية إلى القصائد الوطنية والدينية، وبجانب الشعر، يتمتع النثر العربي بتنوع وغنى في أشكاله، بدءًا من الرواية والقصة القصيرة إلى النقد الأدبي والمقالات الفلسفية.

والتراث الشفوي يشمل هذا الجانب قصص الأجداد والحكايات التي تنقلت عبر الأجيال شفهًا، والتي تعكس الثقافة والتقاليد العربية بشكل حيوي، بهذا التنوع اللهجي والأدبي، تثبت اللغة العربية أنها لغة غنية ومتنوعة، تعبر عن تراث وثقافة شعوبها بأبهى صورها.

تاريخ اللغة العربية:

العصور القديمة:

يعتبر العصر القديم مرحلة مهمة في تاريخ اللغة العربية، حيث كانت اللغة تنتشر في شبه الجزيرة العربية وكانت تستخدم بصورة شفهية بشكل أساسي، ويمكن تتبع تطورها في العصور القديمة من خلال النقوش والآثار التي تم العثور عليها، وتشكل مرحلة هامة في تطور هذه اللغة العريقة. هناك القليل من المصادر المكتوبة التي توثق تلك الفترة، لكن الأبحاث الحديثة والاكتشافات الأثرية تسلط الضوء على بعض جوانب هذا التاريخ.

---

[3] عبد الرحمن أيوب، محاضرات اللغة العربية منهج في دراسة اللغة من الناحية الاجتماعية والنفسية ودراسة أصواتها ومفرداتها وقواعدها، كليه دار العلوم، جامعة القاهرة مطبعه المعارف، بغداد، 1966، ص6.

[4] طه حسين: في الادب الجاهلي، ص169.

الأصول اللغوية:

يمكن التطرق إلى أصول اللغة العربية القديمة وتأثيراتها اللغوية من خلال الدراسات اللغوية الحديثة والأبحاث الأثرية التي تفيد في فهم كيفية تطور اللغة العربية عبر العصور.

يعتبر الشعر الجاهلي أحد أهم المصادر التي توثق استخدام اللغة العربية في هذه الفترة، وقد تميز بجمالياته وغزارة مفرداته، وبالرغم من ان الشعر الجاهلي يمثل مرحلة ناضجة من مراحل وجود العربية الفصحى، ويقول "ابو هلال العسكري: كذلك لا نعرف انساب العرب، وتواريخها وايامها ووقائعها الا من جملة اشعارها، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها ومستودع علومها"[5]، فان الدور الاجتماعي الذي كانت تستعمل فيه الفصحى في هذا العصر كان على ما يبدو من الموضوعات التي كان يطرقها هذا الشعر، دورا محدودا لا يتجاوز وصف مجالس اللهو او مطاردة العذارى او التفاخر بمآثر الشاعر الشخصية او مآثر قومه. واذ لاحظنا أنه لم يوجد الى جانب هذا الشعر نثر يختلف في اغراضه اختلافا جوهريا لتأكد لنا ضيق المجال الاجتماعي الذي كانت تستعمل فيه اللغة الفصحى في هذه الفترة من حياتها، يقول الجاحظ: "فكل أمة تعتمد على استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الاشكال، وكانت العرب جاهليتها تحتال في تخليدها بان تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها"[6]، من وجهه النظر اللغوية البحتة، كان يتجنب بعض الاوزان المعينة كوزن "فعل" و"فعلت"، نظرا لأنها تمثل توالي توا مقاطع ثلاثة مفتوحة، وقليلا ما تتوالى في تفاعيل الشعر أو أربعه او خمسة من المقاطع المفتوحة وهي لا توجد في تفاعيل الشعر على الاطلاق. كما ان الشعر الجاهلي يستعمل "اذا" داخلة على الجملة الاسمية، وكانت الركيزة الاولى آنذاك هي الشعر الجاهلي، ولكن سرعان ما انفصلت هاتان الغايتان عن عمل الرواة، وصار القصد من جمع الشعر لذاته فقط، وزادت موجة الرواية حدة، فصار ذكر الاسانيد نادرا"[7] ويقابل هؤلاء المفسرين واضعو قواعد اللغة العربية وجامعو ألفاظها وكانت الركيزة الاولى آنذاك هي الشعر الجاهلي، وهذا تركيب يرجع بالفصحى الى صفة سامية قديمة هي استعمال هذه الاداة في الاشارة المؤكدة.

---

[5] أبوهلال العسكري: كناب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المطبعة العصرية، بيروت، 1986، ص 83.

[6] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تح: إبراهيم شمس الدين، منشورات العلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 2003، ج1، ص64.

[7] شوقي ضيف: تاريخ الادب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط26، 2007، ص149.